جدة ظاهرة أمريكية ..

ارتفعت اسعار الشركسكين .. لقد زادت الضعف هذا العام عنها فى العام الماضى والسبب هو الضريبة الجديدة التى وضعتها الحكومة على الشركسكين .. والنيلون والقمصان الكاوتشوك والبيجامات الهندى والقباقيب البلاستيك .. ورغم ذلك .. فلا زالت اسعار الثياب والشركسكين بصفة خاصة مغرية جدا .. على الاقل للمقيمين فى القاهرة ولا يعنيهم مشاكل النقل والجمرك .. فالمعروف أن الآلات هى التى تخضع لأعلى فئة ضرائب تليها الاجهزة كالراديو والعربات التاكسى بصفة خاصة ثم أخيرا جدا يأتى الشركسكين بعكس أى نظام ضرائبى فى العالم ولكن هذا ما أخبرنا به التاجر السعودى فى شارع الامير فيصل الشارع الرئيسى فى « بازار جده » كما يسميه مواطنو « العربية » السعودية .. أو سوق جده كما نقول نحن باللغة العربية .

ولم نكن نبحث عن شركسكين ولا قباقيب بلاستيك ولكنى ابتليت بصاحبى الروسى الذى طاف جده كلها .. أعنى السوق فليس فى جده سوى السوق ـ يبحث عن صناعة وطنية .. وسحبنى معه .. أترجم له السؤال التقليدى .. « نريد صناعة محلية » ولا يفهم الناس فنكرر السؤال .. شيئا مصنوعا فى المملكة العربية السعودية .. وضاق بنا صبى صغير فى دكان قد أتخمت بما لا يقل ثمنه عن عشرة آلاف جنيه من شتى أنواع الثياب التى لا يحلم بها نجوم المجتمع .. أعنى مجتمعا يهمه حماية صناعة النسيج فيه .. ضاق بنا وانفجر صائحا .. « لكن انتم عارفين أن ما عندنا صناعات » وصاح حاج طيب القلب فجأة وكأنه المرحوم ارشميدس « وجدتها .. هذه صناعة وطنية » وقدم لنا بكل اعزاز قالبا من العجوة .. تمر هجر الشهير .. ورغم شديد احترامى وتحمسى لتمر هجر فلم استطع ان اقنع الروسى بان هذه هى الصناعة الوطنية وتركته يبحث عن صناعة

وطنية وصفير الكاديلاك لا ينقطع ، والتفت أنا أناقش الصبى الذكى .

وسوق جدة يشبه الى حد كبير أسواقنا فى الخيمية والغورية والموسكى منذ ثمانين أو تسعين عاما فى هذه الفترة التى سبقت

الاحتلال البريطانى عندما ازدحمت شوارع القاهرة بحوانيت المصريين التى افتخر كرومر بعد ذلك بانها قد انقرضت وحل محلها المقاهى واجانسات البنوك والشركات الاجنبية بفضل معونة دولة الاحتلال

طبعا ...

والدكان السعودى له عتبة عالية يجلس فى صدرها التاجر على شلتة ربما حشوها كريب يشرب النرجيلة ذات الخرطوم الشديد الطول ويقوم بالعمل صبى فى منتهى الذكاء يفهم فى الشركسكين والموضة والمتر والياردة والذراع البلدى ويحول الدولارات الامريكية الى بوكشات يمنية فى ثوان .. وجرنى الحديث مع الصبى الى الضرائب .. كنت أقارن بين رخص القماش فى جدة وغلوه فى مصر وفسر هو ذلك بارتفاع الضرائب فى مصر وسرعان ما أكمل« ولكن ذلك من أجل حماية الفبارك المصرية .. لكن احنا ما عندنا فبارك » !

رسالته : « وأنت كتاجر تحب أن توجد مثل هذه الضرائب المرتفعة ؟ » ويبدو اننى أوقعته فى التناقض فأجاب اجابة ماكرة : « طبعا أحسن لو كان عندنا فبارك لكن ما دام مافى ليش الضرائب ! » ولاحظ الروسى فارقا بين جدة والقاهرة فعلى حد قوله « فى القاهرة تحس باتجاه قوى نحو بناء صناعة وطنية سواء بمعونة الشرق أو الغرب .. أما فى جدة فقد لاحظت أنا أكثر من فارق .. ان هذه المحلات كلها برأس مال سعودى والغريب ان القوانين تسبغ حماية شديدة على الرأسمالية الوطنية فى المتاجر والتاكسيات والعقار ...

وان كان الباب مغلقا تماما فى البترول .. ولكنها أى المتاجر لاتبيع فتلة واحدة من انتاج السعوديين . انها سوق أمريكى على البحر الاحمر .. كل شىء امريكى حتى التعامل على اساس الريال .. أو الدولار السعودى .والمدينة متخمة بطبقة تجار تغتنى فىسرعةواندفاع جنونى لا يتيح لها حتى فرصة للتفكير والمناقشة وهى تمثل ظاهرة من أعجب ظواهر تطور النظام الاستعمارى فالقاعدة أن الدول الاستعمارية تعيش عالة على المستعمرات ولكن فى جدة تحس ان المدينة وتجارها يعيشون عالة على الاقتصاد الامريكى الذى يعيش بدوره على البترول السعودى . ان المدينة التى تتدفق منها ملايين الدولارات تعيش على استيراد البضائع الامريكية وبيعها بالتالى للسياح والزوار والموظفين المتدينين والمهربين وتجار الحشيش وحاشية الامراء العرب وقطيع هائل من الافاقين والمنافقين وباعة الاعراض وتجار الذمم واخصائيى الملذات .. والشاذة منها على وجه الخصوص .. هذه المدينة التى تعتبر جنة الجزيرة العربية كفيلة بالاختفاء خلال ساعات والعودة الى عهد الرعى السعيد اذا ما وقف تدفق النيلون والشركسكين .. والاقتصاد السعودى فى حاجة الى دراسة عميقة ولا أعتقد ان لدى المعلومات ولا الارقام التى تمكن من اعطاء كلمة حاسمة فى هذا الموضوع ولم أذهب الى المملكة العربية كخبير اقتصادى . ولكنها نظرات عامة لم أستطع أن أمنع عينى من التقاطها بين السعوديين الذين يرتدون الجلاليب النيلون وارد U.S.A والصنادل الكرب والجاكتات الشركسكين واليمنيين الذين يشتغلون فى أسواق جدة فى أحط الاعمال وأقساها ويكونون نسبة عالية من هذا العدد الوفير المزعج من المتسولين . واليمنيون يرقبون الاموال المتدفقة على اخوانهم السعوديين ويرجعون كل هذا الثراء الى عملية

غاية فى البساطة .. مجرد توقيع يرصع به امام اليمن عقدا مع واحدة من هذه الشركات التى تعشق البترول .. وفجأة ينبثق النيون والنايلون ويزحف الكاديلاك .. ولكن امام اليمن لا يفعل . ولذلك قصة ... ومن ثم يجترون المرارة والحسرة ويكونون هذه القوة المعارضة التى تثير المتاعب فى اليمن .

***

كان المفروض أن تنقلنا الطائرة الى الحديدة فى اليوم التالى وسمح للذين يرغبون فى زيارة بازار جدة ببضع ساعات على أن نلحق بالطائرة السعودية التى استأجرتها المملكة المتوكلية اليمنية ولكن تبين أن بازار جدة أقوى من أن يكتفى المرء منه ببضع ساعات .. وكان أن تأخر البعض واستحال سفر الطائرة لانه كما فهمنا لا بد من هبوط الطائرات نهارا بمطار الحديدة لاختفاء الاضاءة فى المطار اليمنى وقد علمت أن نظام الاظلام هذا دائم حتى قبل العدوان الثلاثى ويبلغ من دقته انه لا توجد بالمطار أجهزة اضاءة بالمرة لقطع الطريق على أى محاولة للاغارة ...

ولم يغضب لهذا التأخير الا الامريكى الذى سمع أن مراسل وكالة أنباء أمريكية أخرى قد وصل الى اليمن وقابل الامام ورأيت صورة للمنافسة الامريكية الخلاقة ، الامريكى الطيب الذكى استاذ مهنته بكل جدارة ، ورغم ذلك فان تسلل امريكى آخر عن طريق عدن الى الجهة التى يقصدها هو يثير اعصابه ويفقده هدوءه ولو كان الآخر روسيا لما ساء ذلك صاحبنا الامريكى قدر ما ساءه أن يفوز بها ابن وطنه !

وكذلك صاحبنا الروسى المتعطش لرؤية اليمن أشد الدول العربية تحمسا للاتحاد السوفييتى كما قال عنها دلاس قبل اسبوع من سفرنا .. وبالطبع ساء ذلك همرشولد المتعطش للبحث عن طرف الخيط والذى يحس بقلق فى فندق الكندرة أو قصر الكندرة وهو شىء يضارع فى الفخامة سميراميس أو مينا هاوس أو يقل عنهما شيئا قليلا ، جميع الخدم وغالبية الموظفين مصريون طبعا والاسعار فوق طاقة الذين يرتزقون من عمل شريف .. يستورد السلاطة من القاهرة بالطائرة ، تصور طبق خس وطماطم مستورد بالطائرة ! وزجاجات مياه فيشى مكدسة بكميات هائلة والغرف جميعها بتكييف الهواء .. والتليفون .. الخ ...

أعتقد انه ليس من الجهاد الانتظار قليلا فى فندق الكندرة خاصة وأنت فى طريقك الى اليمن ، حيث ينصح القادمون الذاهبين بحمل الماء معهم وأنت فى الكندرة تشرب ماء فيشى وماء مثلوجا وعصير الاناناس والطماطم الطائرة ...!!

وعندما اضطررنا الى المبيت فكرنا فى القيام « بالعمرة » وخرجنا فى فوط الى مكة وأنا أحمل فى أحد رؤوسى ، فقد سمانى فشنفسكى « ذو الرؤوس الخمسة » كنت أحمل فى واحدة من هؤلاء تراث الميتافيزيق خلال الالف قرن التى انقضت على اكتشاف الانسان للعالم الآخر ...

وفى الطريق الذى اجتازه منذ أربعة عشر قرنا على راحلتين رجلان يؤمن أحدهما بالثانى ايمانا لا يفوقه الا ايمان الاول برسالته ، خرجا معا من مكة يقصدان المدينة ومرا فى ذلك الطريق الطويل الذى قطعته السيارة فى أربع ساعات ٠والطريق منحوت فى صميم الصخر تحيط به جبال جرداء لا يمكن أن يسكنها الجراد ولا تنبت عشبا جبال تضيق حتى تكاد تحس بالاختناق وانها توشك أن تجثم على صدرك٠ولعلهما كانا يفكران فى هذه البلاد التى منحتها الطبيعة النصيب الاكبر من الصخر والرمال والاشواك حتى تحدى أهلها نبيهم أن يباعد بين هذه الجبال لكى يجدوا متنفسا وأن يفجر الارض ينابيع وأنهار ٠٠ وقد استجاب الله لدعائهم وحقق الرجل المؤمن بنفسه مطلبهم ٠٠ لم يقذف بالجبال الى البحر ولا فجر الماء من الصخر ولكن قذف بالرجال عبر الجبال وفجر الايمان فى قلوبهم فأقاموا فى سنوات « متحدا » واسع الارجاء اختفت فى داخله الجزيرة بجبالها وصخورها وجدبها كما تغيب الصخرة الصماء فى المحيط المترامى الاطراف

والجبال ذات ألوان فاقعة وهى ان كانت تعنى شعرا عند البدوى فانها تعنى حديدا وفحما ومنجنيزا ونحاسا بل وربما أورانيوم عند رجل الصناعة الامريكى . ويخيل اليك أنك تستطيع أن تهبط وتحمل المعادن بواسطة فأس وجاروف ومقطف حتى قال أحدهم ان هذه البلاد بحاجة الى صناعة تعبئة وليست صناعة تعدين !! ونظرة واحدة الى الجبال تقنعك باستحالة الاعتماد على الزراعة وهذه البلاد لايمكنها العيش الا بالتجارة ، استوردت وصدرت فى الجاهلية بضائع الهند وآسيا وافريقيا ثم صدرت الفلسفة ونظم الحكم والرجال الاقوياء فى صدر الاسلام وهى اليوم تصدر البترول ولكنها لن تعيش على البترول وحده والبترول مصيره الى النفاذ ولم يحدث ان تقدمت دولة على اساس سلعة واحدة ولا أقول صناعة ... وعندما توضع ميزانية للشعب السعودى بأكمله فان ما تدفعه شركات البترول لن يكفى لبند واحد ولكن عندما تدور ماكينات الحديد والنحاس والبوكسيت فستنتهى أزمة الجزيرة والى الابد .. ولكن أمريكا لا ترى فى السعودية الا بئرا للبترول وتعرقل قيام أى صناعة حقيقية هناك ، وللاسف يرى الكثيرون ممن لهم حق الرؤية وهم ليسوا بالكثيرين يرون فى أمريكا القادرة على كل شىء والتى على صواب دائم .

وفى الطائرة كان الى جانبى أحد التجار السعوديين الاثرياء جدا .. ربما تبلغ ثروته أكثر من مليونين من الدولارات وكان يشغل منصبا كبيرا فى الحكومة السعودية كما أخبرنى وكنا نتحدث عن مشروع ايزنهاور ورحلة سعود الى وشنطن .. وقال السعودى « لا أمل .. لن يحدث التغيير الذى يتوقعه الجميع .. ربما يحدث ... ان حدث فجأة ودون أن يتوقعه أحد .. ان مصر يجب أن تفهم ان السعودية

لا تستطيع ان تتخلى عن امريكا .. اننا لا يمكن أن نحيا الا بها .. امريكا استعمارية نحن نفهم ذلك .. ولكن كيف يمكن أن نتخلى عنها .. لا تسرفوا فى الآمال .. » وتأملت الجلباب الحريرى الفاخر والساعة ذات التاريخ الافرنجى والقمرى ومواقيت الصلاة بما فيها التراويح وبرنامج الاوبرج خلال العام القادم ، وسكت .. كنت أعرف مقدار الصدق فى حديثه وأحس بضميره كعربى يعانى آلاما مبرحة من وجوده كتاجر يعيش على هامش البترول ويثرى ثراء فاحشا من هذا الهامش .. كنت أعرف ان المملكة السعودية لا تستطيع أن تدير صناعة البترول بنفسها ولست أحمق حتى أنصحه بالاستعانة بالروس ! ولست مثاليا كصديقى الروسى حتى اقترح شركات من دول حيادية كالسويد والنرويج ولكنى كنت أعرف جوابا واحدا .. ان مصر .. صناعة مصر وجامعات مصر هى وحدها التى تستطيع أن تجيب على هذا السؤال .. ومن الذى يخرج البترول ؟ من الذى يملأ الفراغ فى الدمام عندما تغادره شركة ارامكو ؟. لقد اقمنا أول شركة مصرية لصناعة البترول وفى كل عام سنخرج الالوف من ابناء مصر المؤمنين بها الفخورين بالانتماء اليها المدربين على كل الصناعات. وفى اللحظة التى سنبدأ فيها صناعة كاملة للبترول بأيد مصرية ـ وليس هذا اليوم ببعيد ـ فسنستطيع عندئذ أن نواجه مطالب القومية العربية .. فالى اللقاء يا صديقى السعودى ان موعدنا عندما استطيع أن أقدم لك كشفا بألف خبير .. ولن يطول انتظارك .. كل ما أتمناه وما أنا واثق منه انك لن تقبل ان يكون الثمن حريتنا واستقلالنا ، وانك ستقاوم أن تطعن مصر فى ظهرها وبيدك أنت .. ستقاوم بقدر ما تستطيع ان ترفع ساعدك الذى تثقله الريالات .

ان التاجر السعودى فى بازار جدة يعترف أن الحالة قد أصابها

بعض الركود منذ اغلاق القناة ولكنه يرفض فى اصرار وحماس أن تفتح هذه القناة قبل انسحاب اسرائيل ويحب عبد الناصر وتحس من كلماته أنه على استعداد لان يموت دفاعا عن العروبة .. وذلك هو كل ما نريده الساعة فالناس عند ما يشدون الحزام على بطونهم يحتاجون الى ما يملأ صدورهم وعقولهم ولكن يجب ألا نسرف فى الاعتماد على الصدور والعقول بل علينا أن نعمل ليل نهار لنملأ البطون كذلك .. وذلك ما نفعل ...

لم تبعث الصخور المعدنية هذه الذكريات وحدها فى رأسى المبتا فيزيقى .. كانت الفوطة تنحل بفعل الريح والعربة .. وجهلى بأصول الاحرام وأحاول أن اكتشف وسيلة لضبطها وأبذل جهدى فى احاطة أفكارى بجو من القدسية الدينية وأغمض عينى متخيلا هذه الالوف التى اندفعت عبر هذا الطريق شمالا أو جنوبا وفى سنابكها كانت كلمة التاريخ .. وتتجمع فى أعماقى بذور .. وأحسب اننى أمسكت بطرف الخيط ولكن اهتزازات السيارة توقظنى بعنف فانتبه على اعلانات كوكاكولا وكيتى كولا ويتبعثر كل شىء وأحاول من جديد واتذكر أصحابنا الروسى والامريكى وزوجته وقد تركناهم فى جدة واعتذرت لهم بأن مكة والمدينة لا يدخلهما مسيحى أو يهودى .. ويضحك الامريكى الذكى ويقول .. لماذا اذن لا تأخذ فشنفسكى معك .. انه ليس واحدا من الاثنين . ويبادر الروسى مسجلا موقفه فيعلق بأنه شديد الاحترام لكل متدين بصرف النظر عن دينه وأشعر أنا بالاعتزاز لكونى مسلما أستطيع أن أدخل مكة والمدينة . وفجأة تقف السيارة عند نقطة مرور ونطالب بتصاريح الوصول الى الكعبة وندهش .. لم يخطر فى بال أحدنا قط اننا سنحتاج الى تصاريح للسعى بين الصفا والمروة أو اننا يمكن أن نحمل بطاقات شخصية ونحن حفاة عراة كما لو كنا خارجين من حمام السجن .. وتدق أجراس التليفون ويبرد الجو من حولنا فجأة ويبدى بعضنا ملاحظات عن النزلة الشعبية والالتهاب الرئوى ويطمئننا السائق اليمنى الى ان أحدا لا يمرض قط فى مكة أو المدينة .. واسأل أنا هل دخلنا حدود مكة ليزداد اطمئنانى واخيرا تفتح الابواب ويسمح لنا بدخول مكة أو ان شئت الدقة بصعود مكة فبيوتها فوق الجبل .. مكة ليست سهلا كما رأيت بل

تقع فى صميم الارض الصخرية وانطلقت بنا العربة الى البيت الحرام وفى هذه الدقائق كنت قد نجحت فى تخطيط لوحة سريعة شاعرية تفيض قدسية ورقة لزيارتى الاولى لبيت الله الحرام ، وترجلنا من السيارة وسحبت منا الشباشب عند سيدة محتجبة تجلس فى المسجد الحرام ، وتفتحت أعيننا دهشة لاسراب الحمام التى لا نهاية لها ولكن لسوء الحظ لم تنفتح أفواهنا بصيحات الاعجاب بل بصرخات الالم من الحصى والصخر الصلد عند المدخل ولكن الارض تحنو قرب الكعبة .. وكان المسجد خاليا نسبيا الا من بعض القادمين من أطراف العالم الاسلامى واستلفت نظرى مغربى يطوف بابنه الصغير شارحا فرائض الدين وشعائر الاسلام وهو فى غمرة سعادة لا حد لها .. وتسلمنا صبى فى حوالى الخامسة عشر من عمره ليقوم بدور المطوف ونحن فى نهاية العام وستائر الكعبة تستعد للتغيير وليست فى جدتها الفاخرة كما هو الحال فى بداية موسم الحج .. لقد عاشت مصر حوالى عشرة قرون مسئولة عن كسوة الكعبة والانفاق على اصلاح طريق الحج وصيانة عين زمزم ولا زالت فى شعاب مكة اساطير عن ثراء المصريين تبددها اعلانات البيبسى كولا وكيتى كولا ونباتين أبو طالب .. وطفنا بالكعبة والصبى يقول كلمات ركيكة أعتقد انها من أيام المماليك ولا أدرى لماذا يتأخر الازهر أو وزارة الاوقاف فى وضع دعوات دينية جميلة بليغة تتفق واحتياجات القومية العربية وتحقق مشيئة الله سبحانه وتعالى فى توحيد أمة الاسلام ولا أعتقد ابدا ان هذه الكلمات التى كان يرددها مطوفنا الصغير هى تلك التى كانت تلهب الحماس فى قلوب أمة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا فحسب .. ورغم ذلك فقد نجحت اللفات السبع وما يصيب النفس من خشوع بين يدى الله فى البقعة المباركة التى اختارها دين التوحيد لتتجه اليها كل القلوب فى لحظة واحدة خمس مرات فى النهار ..

ليس فى دين من الاديان مثل هذا القطب المغناطيسى الذى تتجه اليه قلوب الملايين من المؤمنين به ورغم ذلك فقد مزقنا وحدتنا وفرقنا قلوبنا بالاهواء والاحلاف حتى أصبح الكثيرون يخشون أى شكل من اشكال الاتحاد الاسلامى .. لانه يتضمن خطر الرجعيـة والتخلف والتفرقة وان كانت تجربة المؤتمر الاسلامى قد حطمت مثـل هذا الوهم عند ما أثبتت ان القلوب اذا ما تطهرت استطاعت أن تتحـد وتكون قوة تسير قدما بالمؤمنين . ولو تأمل كل منا لحظة واحدة فى صلاته عندما يفكر أن ٤٠٠ مليون يتجهون الى نفس البقعة لاحس بجرم الذين يسعون للتفرقة .

غرقت فى هـذه الافكار وحلقت فى أجواء الدين وبسـطت يدى بالحب لحمام الحمى محاولا أن أمسك بطرف الخيط وفجـأة .. يتعالى الطرق والهبد والكسر انها ماكينات دق الخوابير وجرارات رفع الاحجار والرصف تقوم بتعبيد الطريق بين الصفا والمـروة وهرعنـا نحظى بآخر سعى قبل أن يرصف الطريق الذى شقته هاجر ساعية بين الصفا والمروة باحثة عن الماء . وتطاير التراب من الونشات الى شعورنا وحلوقنا وضاعت ترنيمات المطوف فى دق الخوابير واختفى بياض الفوط تحت رذاذ رشاشات الاسمنت الاوتوماتيكيـة وضـاع الخيط فى ضجيج ماكينات جنرال موتورز .

وانصرف البعض الى سوق مـكة حيث يقـال أن حرير الـكامبو ٥٥٠٠ أرخص منه فى جدة وان هناك أصنافا من الشركسكين لم تصل بعد الى الثغر .. وعـدت أنا مسرعا الى قصر الكنـدرة أقوم بدور هنرشولد بين الروسى والامريكى ...

وفى الفندق التقيت بأمير وهو ليس بالشىء النادر ، على العكس أنه من المناظر المألوفة هناك أن ترى شابا ملتحيا يرتدى الجلباب والجاكته وعمامة ذات شكل خاص وبجانبه صبى يتعجل اللحية ويهرع الصحفى

المصرى مسلما على سمو الامير ونحن نستعمل هذا اللفظ على نحو يخالف حقيقته هناك .. وأعتقد اننا نحمله نغمة اقطاعية لا مبرر لها وكلمة أمير ترتبط فى تفكيرنا بأمراء العائلة المالكة التى تخلصنا منها.. كان هؤلاء على درجة فاحشة من الثراء .. كان فاروق أغنى ملك فى العالم باستثناء ملوك أمريكا ، وكان الامراء على درجة فظيعة من الترف الاقطاعى فارتسمت فى ذهننا صورة مترفة للامراء. وفى فندق الكندرة أو فى الحوش ان شئت الدقة فأسعار الفندق لا تسمح لصاحب السمو بالاقامة فيها قابلته فى الردهة وهو على أبواب العقد الخامس من عمره وبجانبه صبى يوشك أن يفتتح العشرين ... اسم صاحب السمو الامير صالح بن عيسى الحارثى من أمراء عمان طرده الانجليز وضموا بلاده بمعونة سعيد بن تيمور حاكم مسقط الذى منع الناس من سماع صوت العرب وأمر بسجن كل من يضبط متلبسا بسماعه وحال بين المسلمين وحج بيت الله . وبعد نفى الامير صالح افتتح مكتبا لامارة عمان فى القاهرة وعاش يناديه الناس بصاحب السمو ويتناقلون عنه انه أحد هؤلاء الامراء الذين ما زالوا يرفضون بيع القومية العربية نظير شلنين أو حتى ثلاثة دولارات فى البرميل الواحد ويفضلون أن يمتطوا هم صهوة الخيل أو حتى يتخاصموا فى ترام القاهرة على أن يشدوا الى عجلات الكاديلاك . ويجلس بالجلباب والجاكت ويعجز سموه حتى عن أن يطلب لنا فنجانا من القهوة ونخجل نحن من أن نطلب له شيئا ، ويرسل صاحب السمو ولى العهد ليحضر لنا خريطة بلاده ونحاول جاهدين أن نتلمس فى وجهه طابع الارستقراطية ولكن لا يبدو من عينيه رغم جهدنا الفائق الا هذا الاعتزاز بالنفس الصفة المميزة لكبرياء العربى حتى أشدهم فقرا وجوعا .

والحقيقة أن الارستقراطية كما تفهم فى العالم الغربى ظاهرة غريبة علينا نحن العرب ولم تعرف فى العالم الاسلامى الا من العناصر الدخيلة

كالفرس والترك ، ولعل اصحابنا الروس الذين سجلوا بارتياح خلو القصر الملكى باليمن من مظاهر الارستقراطية التى ترتسم فى ذهن قادم من العالم الاشتراكى بعد دراسة تاريخ الاقطاع والعيش فى أساطير شهر زاد وبطرس الاكبر وتراس بولبا .. يبدو أنه قد فاتتهم هذه الملاحظة وأعنى طبيعة العربى التى لا تتفق والارستقراطية الاقطاعية . وان كان هذا لا يعنى اختفاء الاوتقراطية فهناك فارق كبير بين الارستقراطية والحكم المطلق .

وكان يحضر حديثنا فشنفسكى الذى أصر على أن يسأل عن أنباء متاعب بريطانيا أو كما يسميها هو التحركات والمظاهرات والكفاح الشعبى فى بلاد سمو الامير ، ولكن سموه خيب ظنه ونفى علمه بأى شىء الا أن بعض الذين أفلتوا من الحصار قالوا أن الناس هناك يكتبون على الجدران .. لعن الله ابن تيمور ويحيا جمال عبد الناصر وقمت بالترجمة لصديقى الروسى وتأبى تربيته الدقيقة الا ان يوجه السؤال التالى : « هل يحب الناس هناك جمال عبد الناصر ؟ » وأسمعه بالانجليزية رأيى بصراحة فى طريقته هذه التى تبعث على الغيظ وأساله ساخرا : « ولماذا اذن يجشمون أنفسهم عناء هذه الكتابة على الجدران ؟! » ولكنه يصر فى عناد الروس وأترجم السؤال للامير ، ونظر الى سموه وتحركت فى أعماقه ثلاثون قرنا من تاريخ أمة البلاغة ونطق بواحدة من الدرر .. « كيف لا يحبونه وهم يرجونه ..؟!

وتنقلنى الجملة الى محيط من الافكار وأرى هذه المسئولية الجديدة توضع على كاهل باعث القومية العربية انه مسئول اليوم عن اعادة أصحاب العروش الذين طردهم الانجليز مسئول عن اباحة سماع صوت العرب فى جنوب الجزيرة وأرض المحميات والذى يحرمه ابن تيمور .. مسئول عن اباحة الحج الذى منعه الانجليز .. مسئول

عن حماية البترول وحفظ حق أهله فيه ، كل هذه المسئوليات يحملها له رجل واحد يجلس بالجلباب والجاكتة فى ردهـــة فندق الكندرة بجدة .. ان ثمانين مليونا يرجون ناصر .. وناصر يعرف ذلك ويتقبل هذه المسئولية لانه يؤمن أنها مســـئولية العرب جميعا وذلك الذى يرجو عبد الناصر يعمل فى نفس الوقت على تحقيق هذا الهدف من خلال ايمانه بناصر ... أى ايمانه بالقومية العربية .. ان الملايين التى تؤمن بالزعيم هى التى تبنى انتصارات الزعيم ...